

فلسفة التربية الحقة

(٣٠ نوفمبر سنة ١٨٩٨)

(١٥ رجب سنة ١٣١٦)

فلسفة التربية الحقة

ب بقلم حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده الشهير .

وهي رسالة نقلها عن درس للاستاذ العلامة الفيلسوف الشيخ جمال الدين الافغاني الحسيني. رحمه الله كان ألقاه على طابته الافاضل عندما كان يدرس كتاب الاشارات للشيخ الرئيس أبي علي بن سينا وجعل ذلك الموضوع فاتحة تدريسه . قال حفظه الله

اذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية او الحيوانية او الانسانية علم أن قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها تفاعلا متناسبا بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالغلبة على باقية غلبة تقضي بظهور بعض خواصه وتسلطها على خصائص البقية فبذلك التناسب يتم للبدن الحي ما يسمى بالمزاج المعتدل الحائل لروح الحياة فان غلب أحد العناصر على سائرهما واضمحلت خواص بقيتهما فيه انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولي المرض على الجسم .

وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ما سواه منها كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الفرزية والحر الشديد الموجب للاحتراق وتحمل الرطوبة الضرورية المنتهي الى اليبس نذير الموت والفناء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشرى والبيطرى ليبحث في تلك العلوم عما به يحفظ اتوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ويأدبه المزاج الى حالة الاعتدال ان خرج عنها لثتم حكمة الله في بقاء الانواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة الازلية . فالنبايون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ويوضحون مواد التسميد وغير ذلك مما لا بد منه في تربية النباتات وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وماذا يجب ان يتخذ منها لكل مزاج ومضار الاهوية ومنافعها ويقفون بتجاريهم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتي يحفظ بذلك على البدن صحته ويرجع اليها ان انحرف عنها ولن يكون الطبيب طبياً يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعى وعلوم النباتات ليعلم خواصها ويميز نافعها من ضارها وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها وما يلائم كل واحد على حسبه وخيراً بعلم الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف وتاريخها من قدم وحدث حتى يعالج كلا بما يليق به فان جهل من ذلك شيئاً كان فقده خيراً من وجوده فان الطبيب الجاهل رسول ملك الموت اذ بجعله يستعمل من الادوية ما عساه يهيج المرض ويعين من الاغذية ما يساعده على قسوته فيفضي ذلك الى هلاك المريض وقد كان بدونه

محتمل الشفاء بمقاومته الطبيعة لولا مساعدة الجاهل وعونه وكما يلزم للطبيب أن
 يكون عالماً بجميع ما قدمنا يجب أن يكون شقيقاً رحيماً صادقاً أميناً لا يكون
 قصاري عمله ما يناله من جعل المعالجة فانه ان كان قسياً عديم الرأفة أو كان
 خائفاً فلربما صار آلة في أيدي أعداء المريض يستعملونه لهلاكه بالقائه السم
 في الادوية مثلاً أو اهماله في العلاج بما يقدمون اليه من العرض الفاني وكذلك
 ان قصر همه على ما يناله من الدينار والدرهم فانه ان كان على تلك الصفة لم
 يكثر بحال المريض مادام يوفي أجر عمله فان هلك فقد نال ما يزيد عن
 مكافأته وان امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات فمدمه أيضاً خير من وجوده
 وكما أن روح الحياة البدني انما يستقر حين تجتمع أصول متضاربة ينشأ
 من تغالبها مزاج معتدل كامل وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح
 الحيوى من حيث أتى كذلك روح الكمال الانساني انما يكون حيث تجتمع
 أخلاق متضادة وملكات متخالفة يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة
 المعتدلة التي هي ركن لبيت سعادة الانسان وعلما بمدار حياته الفاضلة فان
 تغلب أحد الخلقين على الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة وبات
 شقياً سيئ الحال وسقط في مهوأة التعب والعناء المفضيين الى الحين والهلاك .
 ألا ترى ان النفس الانسانية لا بد لها من خلق الجراءة وخلق المخافة
 وهما متضادان ومن مقاومتهما على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق
 به من المواقف تتحقق فضيلة الشجاعة التي لو فقدت بتغلب المخافة لكان
 فاقدتها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ولم يستطع عن نفسه دفاعاً وكانت
 حياته على خطر يهدده في جميع أوقاته ولو أن الجراءة تغلبت على المخافة
 حتى ذهب أثرها كانت تهورا وعدم أكثرا بالمهالك لحق ولنغير حق

بدون تبصر ولا مراعاة حكمة فيلقي بروحه في مهاوى الهكلة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه وكذلك لا بد لها من خلق الامسك والبذل وهما متخالفان متعارضان يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء والبذل في موضع الاستحقاق اذا اعتدلا . ولو أن الامسك تغلب على ضده حتى اضمحج فيه لا تمسك عن قضاء لوازمه الضرورية فلا يأتي باللائق من الاغذية مثلا والألبسة فيضر بسدنه ولم يوف بحقوق مشاركته في المعيشة كزوجته وولده أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده فيقع الشقاق بينهم ويتأدي به الى شقاء دائم وغير ذلك من مفسد البخل التي لا تنحصر . ولو تغلب البذل لأنفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيرا لا يجد ما ينقده في أزم لولائه فيهلك وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية انما هي وسط طرفين متضادين لا بد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس يقع أيضاً بتغلب أمر خارج على مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر القاسد بمخالطة ذوى الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لاعمالهم وتقليدها بامادهم أو باستماع اغواء ذوى الاعواء وتمويهات أرباب الانغراض الفاسدة الدنيئة المذممين للافكار الرديئة المؤيدين للعقائد الباطلة التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدى الى فساد المعيشة فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى اجانب النقص والاعوجاج كما

وضع الطب ولو ازمه لحفظ صحة الابدان كما بينا
فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد وبيان مفسد
الاخلاق ومنافمها وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال بمنزلة
الاطباء وكما لزم للطبيب أن يكون عالماً بالتاريخ الطبيعى والنباتات والحيوانات
وعلى الأمراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف كذلك يلزم للحكيم
الروحاني طبيب النفوس والأرواح اذا رقي منبر الارشاد ان يكون عالماً
بتاريخ الأمة التى قام بارشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الأمم أيضاً وان يكون
مطالماً على درجات ترقيا ودرجات تدنيا في جميع الازمان وأن يسبر أخلاقها
بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ويقف على درجات الداء
وتمكنه فيهم وانه حديث أو قديم قوى فى النفوس أو ضعيف وما هو العلاج
اللائق بكل صنف

وكما انه يجب على الطبيب البدنى ان يكون على علم تام بمنافع الاعضاء
وغايتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالماً بمنافع الأخلاق
ومضارها على طبق ما فى نفس الأمر والواقع .

وكما يلزم ان يكون الطبيب شقيقاً رحيماً صادقاً أميناً لا ينظر الى الدنيا ولا
ينحط الى المقاصد السافاة كذلك على النصحاء والمرشدين أن يكونوا من ذوي
الاستقامة والفضيلة مرتقي الهمة أولى مقاصد عالية لا يبيعون الفضيلة بحطام
الدنيا ولا بالقرب والتزلف الى الأمراء والكبراء أو تلك هم المرشدون
الحقيقيون . فان رزقت الأمة بمثلهم فبشرها بالسعادة وان رزئت بمتطيين
لأطباء بأن صعد على منابر المصحح فيها الجهلة والإغبياء والسفلة والادنياء
فأنذرهم بالعناء والشقاء فان المرشد الضال والنصوح الجاهل يودع

النفوس رذائل الاخلاق باسم انها فضائل ويفرس فيها جرائم الشر باسم انها اصول الخير ولربما كان مقصده حسناً ولا يريد الا خيراً ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه . ويبعده عن اتخاذ وسائله فتقع الارواح في الجهل المركب وهو شر من الجهل البسيط فان ذا الثاني على باب التفضيلة لا يلبث ان فتح له ان يلجه وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل واستتر تحت نفع الرذيلة واعتقد ذلك ظلاً ظليلاً فلا يمكن المدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيراً من وجودهم وكذلك ان كان خائفاً أو ذنباً ينحط الي سفاسف الامور أو عديم الشفقة الانسانية فانه يتخذ النصيحة سلماً للوصول الى أغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر . صفت النفوس أو تكدرت ارتفعت الآداب أو انحطت . صحت الارواح أو اعطت . فيكون آلة بيد الاشرار وذوي الاهواء يستعملونه في فساد الامة والعشيرة لقضاء أوطارهم

ألا وان القائمين بأمر الارشاد يحصرون في قبيلين قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أرباب الجرائد فان كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقد استحقوا التعظيم والاحترام والتبجيل والاجلال واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء جلدتهم والا استحقوا الرفض والاطرد والابعاد ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح أن يقذفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذي لا يقتصر ضرره على المبتلى بل يتعداه بالسراية الى كل ماسواه

